الحضور الإباضي في مدينة "باتنة" وضواحيها

منذ الدّولة الرستمية حتى استرجاع الاستقلال الوطني

تستوقفني، في البداية، ثلاث ملاحظات لا أرى جواز التكتم عنها أو القفز عليها. وغرضي من الإفصاح عنها هو جعلها سندا لي لتجاوز بعض قيود الحرج الشاق الذي لا استبعد أن يستجلبه عنوان هذه البحث كما سطرته، وهو: الحضور الإباضي في مدينة «باتنة» وضواحيها منذ الدّولة الرستمية حتى استرجاع الاستقلال الوطني.

لمباركية نوّار - باتنة

الجزء الأول

الملاحظة الأولى:

● لا أريد أن يدفعنا عنوان هذه المحاضرة إلى السير في متاهات الغرابة والتعجب البتة، وكأننا أمام اكتشاف جديد، وغير مسبوق؟!؛ لأن مثل هذه العلاقة / أو العلاقات التي نبحث فيها لا تمثل شذوذا مخالفا أو حالة نادرة. وإن امتداد مثل هذه العلاقة / العلاقات هو أمر طبيعي لاعتبارات عديدة.

الملاحظة الثانية:

إن ظهرت هذه العلاقة/ أو العلاقات نامية وبارزة في اتجاه واحد، فذلك بسبب عوامل اجتماعية واقتصادية وتاريخية فرضت فرائضها على رسمها وتوجيهها، وتحكمت فيها، ولونتها بلون صروف الدهر ومفاجآت الزمان، وحركة ونشاط واندفاع وطموح الإنسان.

الملاحظة الثالثة:

لئن يُرى بأن صيغة العنوان تحدد التخوم الجغرافية التي سيشغلها الموضوع تحديدا معلّما ومحكما، فإنه في الواقع لا يرسم المدى الجغرافي بصورة مضبوطة في ما يخص عبارة: « ضواحي باتنة»؛ بسبب أن بعض جوانب البحث لا تستجيب إلى معيار التحديد الذي أصبو إليه. فلفظة «الأوراس»، مثلا، التي تسببت في بروز هذه الملاحظة المنهجية يطرح إشكالا ذا جانبين تصعب السيطرة عليهما: جانب الحيز المكاني وجانب الاستقصاء البحثي. واستطرادا من أجل التوضيح، فإن بقعة «الأوراس»التي تذكرها الكتب القديمة قد انحسرت عما كانت عليه. وأرغب الاستفادة من هذه الملاحظة لتبرير بعض اقتباساتي واستشهاداتي إن لوحظ بأنها أقحمت رغما عن العنوان.

جذور العلاقة الضاربة في أعماق التاريخ:

في الحقيقة، إن العلاقة بين الإباضيين و«الأوراس»، عموما، هي علاقة قديمة بدأت مع نشأة الدولة الرستمية الإباضية سنة 160هـ - 776م ، والتي تُعد أول دولة إسلامية ثابتة الدعائم والأركان في المغرب الإسلامي، وقد جرى انشقاقها عن الدولة العباسية في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور على يد عبد الرحمن بن رستم الفارسي نسبا، على أغلب الآراء، والإباضي مذهبا. واستمرت حتى سقوطها سنة 296هـ - 909م على يد الفاطميين بقيادة أبي عبيد الله الشيعي. وبعد خسوف شمسها التي سطعت مزدهرة ردحا من الزمن، فرّ أنفار منها إلى جبال «الأوراس»المنيعة، واتخذوا منها ملاذات وملاجئ للحفاظ على أنفسهم من التشرد والهلاك، ولصون مذهبهم الديني من الاندثار والزوال)1.(وإن استنجدوا بالأوراسيين؛ فذلك لأن هؤلاء ممن يأبون الضيم، ويكرهون الظلم والاضطهاد، ويحفظون العهود، ولا يفرطون في من يقصد ديارهم طلبا للحماية والنجدة. ومنذ كان «الأوراس» الحصين، فهو ملجأ للضعفاء والمضطهدين ولمن سلب منهم الجاه والسلطان والعز.

يرسم لنا ابن الصغير المالكي المعاصر للدولة الرستمية، والذي عُدّ من ألمع مؤرخيها، وكتب عمن تداولوا الحكم فيها كتابه الشهير) :أخبار الأئمة الرستميين(رغم بغضه المصرح به الذي يحمله في قلبه لهذا الكيان، يرسم لنا صورة ناصعة عن هذه الدولة نستشف منها انفتاح صدرها واتساعه لكل الوافدين عليها في كنف الحرية المعبرة عن المناخ الديمقراطي الذي ساد فيها بمصطلح أيامنا. وهذا ما شجع البربر والعرب والعجم من الانضواء تحت لوائها، إذ

يدوّن واصفا ظروف الحياة في ربوعها وتحت ظلالها، قائلا) :قويَّ الضعيف، وانتعش الفقير، وحسنت أحوالهم وخافهم جميع من اتصل به خبرهم، وآمنوا ممن كان يغزوهم، ثم شرعوا في العمارة والبناء، وإحياء الموات، وغرس البساتين، وإجراء الأنهر، واتخاذ الرُّحاء (*)، وغير ذلك. واتسعوا في البلد وتفسحوا فيها، وأتتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصي الديار. ليس أحدٌ ينزل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم، وابتنى بين أظهرهم، لِمَا يرى من رخاء البلد، وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته، وأمانه على نفسه وماله، حتى لا تُرى دارٌ إلا قيل هذه لفلان الكوفي، وهذه لفلان البصري، وهذه لفلان القروي، وهذا مسجد القرويين ورحبتهم، وهذا مسجد الكوفيين، وهذا مسجد البصريين 2.

ونجد إحدى الشهادات الراسخة عن قدم العلاقة بين أهل «الأوراس» والإباضيين في ما يقوله المستشرق الفرنسي ويليام مرسييه...) : ومن حسن حظ بني رستم أن اعتمدوا على أبناء«الأوراس»، وهم رحل يتعاطون الفلاحة، وعلى سكان قرى جبال طرابلس. وكانوا يجدون من بينهم الجند المخلصين والدعاة المتحمسين والمموّلين لخزائنهم بما يدفعونه من ضرائب 3.

وفي سياق قريب وموسع، يقول رائد الإصلاح وسيده بلا منازع في الجنوب الجزائري الإمام الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض)1899 - 1981م - رحمه الله، يقول) :إننا نحن الميزابيين جزائريون منحدرون من أصل جزائري، ولنا في قلب الجزائر الشمالية آثار عظيمة، وتاريخ مجيد، وذكريات لا تُنسى. ومن ذا الذي ينسى الدّولة الرستمية في "تيارت".

لكن تقلبات الدّهر دفعتنا إلى هذه الزاوية من جنوب الجزائر على أبواب الصحراء، فاستوطناها، ولم تتقطع علاقاتنا بالشمال أبدا، كما أنها لم تتصل بالجنوب أبدا. ويستحيل أن تتغير هذه الحالة فيما يُستقبل من الزمان.

إن حياتنا ومصادر عيشنا ومنابع اقتصادنا كلُّها في الشمال. فالميزابيون كلهم منذ ولادتهم متجهون إلى الشمال منذ أقدم العصور، تشهد بذلك الآلاف المؤلفة من أبناء ميزاب المنبثين في العمالات الثلاث لطلب الرزق بالتجارة، ولتغذية عائلاتهم التي تنتظر بفارغ صبر في ميزاب ما يبعثون به إليها...4.

نقرأ في قول الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض - رحمه الله - إقرارا وشرحا لعبارة متداولة تجري مجرى الأقوال المأثورة والمتواترة على ألسنة إخواننا الإباضيين، ومؤداها بلهجتهم المحلية:)أَغْلانْ يَشَّرِدْ سَالتَّلْ (**)(، ومعناها أن النهضة التي شهدتها مدائن وادي ميزاب السبع كانت بفضل ما أدرّته جهة شمال الوطن التي ارتحلوا إليها بكثافة طلبا للرزق.(**)

اضطر الإباضيون إلى مغادرة مدينتهم «إسدراتن»: سدراتة القريبة من ورجلان: «ورقلة» التي افتنوا في تعميرها بالدور والقصور، وملئها بالبساتين، بعد أن ضاق بهم جيرانهم ذرعا، وامتلأت قلوبهم عليهم حنقا وحسدا وحقدا، وخشوا منهم المنافسة والمزاحمة، واستجاشوا عليهم بجيوش المرابطين، فأجلوهم عنها ليحلّ محلهم الزنوج. وفرض على الإباضيين النزوح إلى جبال «بني مصاب» أو «ميزاب»، ونزلوا بالوادي المحل الجديب 5, ولما انطلقوا في تأسيس مدائنهم التي تسلقت المرتفعات والتلال والهضبات ، وحطت عليها كأعشاش النسور، ظل اسم «الأوراس» حاضرا وراسخا في الذاكرة التراثية الجماعية للإباضيين، فاسم مدينة العطف «تجنينت» أولى مدنهم في تلك الضفاف المهجورة، وحسب أحد الأقوال المروية، هو نسبة إلى بعض العائلات البربرية الزناتية التي سكنت هذه المدينة، وما يزال هذا الاسم تلقب به بعض العائلات في«وادي ميزاب» و«الأوراس»، وهو لقب: «عطفاوي»6,

وكذلك سارت التخمينات التي أمعنت النظر في مصدر اسم مدينة «بني يسجن» التي يحيط بها جدار حصين إلى اليوم، حيث ترى أن الاسم الأصلي بربري من «أث إسجن»، وقيل نسبة إلى بعض العائلات التي عمّرت هذه المدينة بحيث نجد عدة عائلات تحمل هذا اللقب إلى يومنا هذا في «وادي ميزاب» و«الأوراس» وتلقب بـ: «إسقني» 7.

هود بن محكّم بن هود الهوّاري «الإباضي »«الأوراسي» .. أول مفسر للقرآن الكريم في المغرب الإسلامي اكتفى محقق كتاب: «الجواهر الحسان في تفسير القرآن» للشيخ عبد الرحمن الثعالبي بإيراد إشارة خاطفة عن هذا الاسم المنسي في مطاوي التاريخ، ولم يسترسل في التعريف به. ومما قاله عنه) :لم ينقطع سكان هذا البلد الجزائري عن درس القرآن، وحفظه وتفسيره في السلم وفي الحرب، في الظروف اليسرى، وفي العسرى، ابتداءً من أول تفسير قام به هود بن محكّم الهواري 8.

أما أستاذ اللسان العربي بكلية العلوم الإسلامية بجامعة «الجزائر» بالحاج بن سعيد شريفي، وبعد أن أضاف إلى اسمه نسب «الأوراسي»، فقد اهتم بسيرة حياته مستندا إلى الاستنباط وتغليب الرأي محتكما إلى الشواهد والاستدلالات من غير جزم لشح مصادر المعلومات ، وكذلك فعل مع والده الشيخ هود الهوّاري الذي امتهن القضاء. ويقول بصدد الأول) :أما قبيلته فهي من قبيلة البرانس البربرية، وقد سكنت بطونها عدة مواطن في إفريقيا والمغرب. فقد جاورت هوّارة قبيلة نفوسة بالجبل الذي ينسب إليها، جنوب طرابلس الغرب، وسكنت بطون منها بلاد الجريد، جنوب الحدود الجزائرية التونسية الآن، وكانت قاعدتها توزر. وسكنت بطون منها جبل أوراس ونواحيه. وهذا الموطن الأخير هو الذي يعنينا في موضوعنا 9

ويواصل قائلا) :في تلك المواطن من جبال أوراس وما يحيط به، وفي كنف هذا الوالد الورع التقي، القاضي الحازم، وتحت رعايته، نشأ عالمنا الشيخ هود بن محكّم الهواري. إننا لا نعرف بالتحديد عام مولده، ولكننا نقدّر أن يكون في العقد الأول أو الثاني من القرن الثالث الهجري. والذي يبدو لنا أن يكون قد أخذ العلم، أولا، في مراتع طفولته ومرابع صباه عن والده، بعد حفظه لكتاب الله. وأنه قد تفقّه في مجالس العلم وحلقات الدروس التي كانت تعقد بالمساجد في القرى الجبلية أو في البوادي، و حتى في المغارات إذا اختل الأمن، واضطربت الأمور، وخيفت الفتن .10

ويضيف في موضع قريب من الاقتباس السابق،)وفي ظل هذه الحياة يكون الشيخ هود قضى فترة صباه، وشيئا غير قليل من شبابه في بلده، وفي موطنه بأوراس يكون قد أخذ جل علومه. فهل خرج الفتى هود من بلده في رحلة لطلب العلم؟. أنا لا استبعد ذلك، بل إنني أميل إليه، وأكاد أجزم به. ذلك أن مركزين عظيمين كانا في ذلك العهد بإفريقية يشعان بأنواع المعرفة عامة، وبالعلوم الدينية خاصة، وأعني بهما: القيروان وتيهرت 11 ,

وأما عن وفاته، فيقول) :أما عن وفاة الشيخ هود، فلم تذكر أيضا بالتحديد في أي مصدر. وأقدّر أنها كانت في العقد الثامن أو التاسع من القرن الثالث الهجري، أي حوالي سنة ثمانين ومائتين. فإن كل ما ذكره من المؤرخين وكتاب السيّر، يؤكد أنه من علماء الطبقة السادسة «250 - 300 هـ». فهل أدرك نهاية الدولة الرستمية سنة ستة وتسعين ومائتين للهجرة؟. أنا استبعد ذلك، ولكن لا استطيع أن أجزم بشيء في الموضوع .12

الهوامش والإحالات

1 - حسب ما ورد في بعض كتب التاريخ.

- الرُّحاء مفردها: الرَّحى الذي يجرش مختلف الحبوب بفضل الطاقة المتولدة عن جريان الماء.

2 - معمر علي يحي - الإباضية في موكب التاريخ - الحلقة الرابعة: الإباضية في الجزائر - الجزء الأول - المطبعة العربية غرداية،س - الصفحة: 14.

3 - جوليان شارل أندري - تاريخ إفريقيا الشمالية - تونس، الجزائر، المغرب الأقصى - من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830م - تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة - الدار التونسية للنشر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - الطبعة الثالثة - الجزء الأول - الصفحة: 42.

4 - بيوض إبراهيم بن عمر - أعمالي في الثورة - نشر جمعية التراث - القرارة «غرداية» - الصفحة 72.

(**) - أغلان باللهجة الميزابية المحلية هو: الموطن. وهم على خلاف بقية اللهجات البربرية في الجزائر يقلبون حرف«الكاف» إلى حرف «التاء».

5 - محمد الجيلالي عبد الرحمن - تاريخ الجزائر العام - ديوان المطبوعات الجامعية«الجزائر» ودار الثقافة بيروت «لبنان» - طبعة جديدة مزيدة ومنقحة - 1982 - الجزء الثاني - الصفحة: 176.

)6(- أعوشت بكير بن سعيد - وادي ميزاب في ظل الحضارة الإسلامية: دينيا، تاريخيا، اجتماعيا - المطبعة العربية «غرداية» - 1991م - الصفحة: 66.

7 - نفس المرجع السابق - الصفحة: 69.

8 - الطالبي عمّار«دكتور» - الجواهر الحسان في تفسير القرآن - للشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي - المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزء الأول - الصفحة «أ» من المقدمة.

9 - شريفي بالحاج بن سعيد - تحقيق تفسير كتاب الله العزيز للشيخ هود بن محكّم الهواري «الأوراسي» - دار البصائر للنشر والتوزيع «الجزائر» - الطبعة الثانية - الجزء الأول - الصفحة: 13.

10 - نفس المرجع السابق - الصفحتان: 17 و18.

11 - نفس المرجع - الصفحتان: 18 و19.

12 - نفس المرجع - الصفحة: 23.

■ يتبع

تستوقفني، في البداية، ثلاث ملاحظات لا أرى جواز التكتم عنها أو القفز عليها. وغرضي من الإفصاح عنها هو جعلها سندا لي لتجاوز بعض قيود الحرج الشاق الذي لا استبعد أن يستجلبه عنوان هذه البحث كما سطرته، وهو: الحضور الإباضي في مدينة «باتنة» وضواحيها منذ الدّولة الرستمية حتى استرجاع الاستقلال الوطني.

■ لمباركية نوّار - باتنة

الجزء الثاني

● يعود استقرار عائلات إباضية في قرية«تازولت» إلى سنة 1512م، أي قبل دخول الأتراك إلى الجزائر بأزيد من عقد ونصف العقد من الزمن. وقد شجعهم على النزول فيها قبل مدينة«باتنة»، كونها، أولا، مدينة رومانية قديمة سبقت في الوجود مدينة «باتنة»التي تأسست في سنة 1844م في موقع يبعد عنها بحوالي عشر كيلومترات ، ولأنها، ثانيا، كانت عاصمة تجارية فيها سوق رائجة وشهيرة من أكبر أسواق الشرق الجزائري. وكانت تنعقد كل يوم ثلاثاء، و تباع فيها المحاصيل الزراعية السنوية والغلال الموسمية، كالقمح والشعير وصنوف التمر المستقدمة من واحات النخيل في الجنوب. وأما في بقية أيام الأسبوع، فتفرغ السوق، ويجوب الباعة المتجولون المؤقتون والموسميون قرى «الأوراس» ومداشره ودواويره وقلاعه للابتياع والمبادلة.

جاءت العائلات الميزابية الأولى التي استوطنت قرية «تازولت» من «مليكة»، وهي المنتمية إلى: آل فرصوص، آل بعمارة وآل شرع الله. ورافقهم في المجيء عائلات أخرى جاءت من مدينة زالقرارة»س، وهي من: آل بوسحابة، آل بولحية، وآل صالح بن لخضر. وما تزال دار تعرف ، إلى اليوم، باسم: «دار بني ميزاب» في «تازولت» جعل من أحد محلاتها مصلى تنعقد فيه الصلوات الخمس جماعة.

بعد زحف الاستعمار الفرنسي على منطقة «الأوراس»، وتأسيس مدينة «باتنة» التي شيدت كمعسكر للجيش الفرنسي، والبدء في تعميرها من طرف السكان الأصليين، دخلتها أولى العائلات الإباضية في سنة 1848م من بعد أن تأسست فيها سوق نشطة في يومي الاثنين والثلاثاء من كل أسبوع في حي «المعسكر». ولما وجدت سوق قرية «تازولت» نفسها منفضة الجموع وغير مقصودة إثر غروب صيتها وسمعتها، انكمشت الحركة فيها حتى ألغيت. وكانت العائلات الإباضية التي سبقت إلى حط رحالها في مدينة «باتنة» ذات الطراز المعماري الأوروبي هي عائلات: آل بعمارة، آل القيرع، آل شرع الله. وأسست بها عائلة بربوشة أولى شركة تجارية.

وتنتمي هذه العائلات إلى «مليكة» وقصدتها من مدينة «القرارة»، عائلات: آل بولحية، آل بوسحابة، آل صالح بن لخضر، آل أبو العلا، آل يحي وأحمد، وعائلات من ألقاب: لعصّبين، أزقاو، مجاهد، بوقرينات وأوجانة.

استمرت العائلات الإباضية التي سكنت مدينة «باتنة» للاشتغال في المجال التجاري نظرا لولع الإباضيين بالتجارة وتفوقهم فيها منذ أيام الدولة الرستمية، ففتحوا الحوانيت والدكاكين وملأوا المخازن والمستودعات. وكانوا هم أول من افتتح أول حمام جماعي في حي «المعسكر» من طرف آل بعمارة، ثم ألحقوه بثان في نهج «Fedherbe» سابقا، من قبل آل شرع الله، وبثالث في شارع فيكتور هيغو، سابقا، هو ملك لآل قيرع. وكان من أسباب ازدهار تجارتهم وأتساعها وتنوعها في مدينة «باتنة» تنامي علاقاتهم مع تجار مناطق الصحراء كـ زبسكرة»س و«وادي ريغ» و«ورقلة»، وخاصة مع التاجر ذائع الصيت في مدينة «بسكرة» عفاري الميزابي 13 .

استمال التجار الإباضيون قلوب سكان مدينة «باتنة» وضواحيها، وكسبوا مودتهم بفضل أخلاقهم العالية في التعامل المبنية على الصدق والوفاء والسماحة والتسامح في البيع والشراء، واللين الفطري في الخدمة، والنزاهة في الكيل والميزان، وحفظ الودائع والأمانات، وردها إلى أهلها حين طلبها، واحترام المواعيد، ومبارحة الغش، وترك كل صنوف التحايل والغدر ونقض العهود ومخالفتها، والإعراض عن الربا وأكل أموال الناس بالباطل، واحترام أوقات إخراج الزكوات، وقرض من يحسنون الظن فيه.

دور الحاج يحي زواي الإباضي في استرجاع أراضي ضيعة «المدينة القديمة» بعد ثورة 1879م:

يمكن اعتبار ثورة 1879م في «الأوراس» فصلا مهما من فصول مقاومة الاحتلال الفرنسي مقاومة شعبية صلبة لم تعرف التململ والتراجع، ووقوفا في وجه مخططاته الماكرة. ولكن، لما منيت هذه الثورة بالهزيمة والانكسار، وفرار قائدها محمد بن عبد الرحمن بن جار الله المعروف باسم: «محمد أمزيان»، والمكنى بـ «أبي برمة»، أي: «بوثقنوشت» صوب أرض«تونس» بحثا عن حبل النجاة لنفسه وبعض شيعته وأعوانه الذين رافقوه، لجأت، فرنسا، التي تحسن نسج شراك الانتقام وحيل التنكيل إلى ترحيل مجموعات من السكان الذين ثار غبار هذه الثورة على أراضيهم ، وتجريدهم من ممتلكاتهم، وتعمير قراهم ومداشرهم بالمستوطنين الأوروبيين الغرباء المستقدمين من وراء البحر لخلخلة انسجام وتناسق التركيبة البشرية للمنطقة. وجلبت إلى ضيعة «لمدينة القديمة» قسا داهية متضلعا في الختل والخبث. ولما أفضت محاولاته السافرة والمتأرجحة بين الترغيب والترهيب إلى فشل ذريع وخيبة مريرة، يئست فرنسا وقررت الخروج من المنطقة. وبعد أن استفادت من خيرات أراضي «الضيعة» لمدة أشرفت عن نصف قرن من الزمن، عرضتها للبيع في المزاد العلني سنة 1928م في مدينة «قسنطينة»، وروج الإعلان في الجرائد، وقررت تسع عائلات من قبيلة «التوابة »، وهي من مالكيها الحقيقيين استرجاعها عن طريق الشراء، وهي: ابن شائبة، ابن عكشة، أوراغ، بوسعد، تيماقولت، عثامنة، عزوي، قرزة وزاوش. وكادت هذه الأراضي الخصيبة أن تذهب إلى جهة أخرى بسبب عدم توفر نصيب المال المشروط لاستردادها لولا مساعدة الحاج يحي زواي صاحب مصنع العطور المعروف في حي «باب الواد» في «الجزائر العاصمة». فقد قبل هذا المحسن قرضهم مالا لاسترجاع أملاكهم المسلوبة على أن يكون له نصيب «العُشر» من غلال أراضي «الضيعة»، واتفقوا أن تسدد له الديون تقسيطا على مدار تسع عشرة سنة 14.

ذكر بني ميزاب في شهادة الشيخ سيدي محمود بن سيدي محمد عبد الصمد عن ثورة 1916 في «الأوراس»:

دوّن الشيخ العلامة المربي والفقيه والشاعر سيدي محمود بن سيدي محمد عبد الصمد)1852م - 11 جويلية 1952م(تدوينات تاريخية قليلة عاصرها أو كان شاهدا عليها في كناش زاوية أجداده التي انتصبت في فج من فجاج جبل «بوعريف» المطلة من الناحية الشمالية على مدينة «باتنة»، ومنها مقالة واحدة دعاها: «الرحلة الوطنية والأخبار الحديثة» خصصها للحديث عن ثورة 1916م في «الأوراس» التي تدعى، كذلك، بثورة: «عين التوتة». وكان حينها من بين العشرة المعينين من طرف الإدارة الفرنسية للنظر في بعض القضايا التي تخص السكان الجزائريين الأصليين، ومن ذلك قبول فئات من الشباب الجزائري للتجنيد في الجيش الفرنسي تجنيدا إجباريا وفق القانون الذي سُنّ في سنة 1912م. ويقول في حديثه عن الصباح الذي تلا ليلة اندلاع هذه الثورة التي شاهد آثارها) :ولما دخلت الفيلاج ***)، رأيت الكومندان والطبيب والأجودان ومعهم العسكر الذين باتوا يطوفون، فقال لي مثل ما قال «المير». ودخلت إلى السوبريفي وهو يتقلب بين العساكر المرضين له، وعينه اليمنى مسدودة ومنتفخة، وفوق شاربه جرح خفيف، وهو في لباس النوم. ولما خرجت من عنده إلى سكك «كذا» الفيلاج، وجدت نحو أربعة أو خمسة من الأهالي مقتولين، ونظرت إلى مخازن بني ميزاب، فلم أجد فيها أصلا شيئا، والأبواب منكسرة والحبوب منثورة. وبعد مدة، وجدت شخصا من «بني ميزاب» أعرفه يقال له سي أعمر بن حمّودة وله سنين عديدة في عين التوتة، فقلت له هل عرفت أحدا من الذين اقتحموا «الفيلاج». فقال: نعم، هم «الخذران» و«أولاد سلطان». أما خليفة الحاكم «كارلي»، لما قدم إلى دوار «أولاد عوف»، بات عندهم، فظننا أنه مات)(15.(

تُظهر هذه الشهادة التي عايشها الشيخ سيدي محمود عبد الصمد عن ثورة 1916م، و التي جرت في «الأوراس» مهد الثورات، وكُتب فصولها وأطوارها كما تبدت أمام عينيه أو بلغت مسمعه، تظهر اشتراك أبناء الشعب الجزائري في تقاسم المصائب في أوقات البلاء.

أثر زيارة الشيخ إبراهيم بيوض لمدينة«باتنة» في زمن استفاقتها الإصلاحية

إن المعلومات التي تخص هذه الزيارة التي قادت الشيخ إبراهيم بن عمر بيّوض - رحمه الله - إلى مدينة «باتنة»شحيحة، ولا استبعد أن تكون قد فرضتها معاينة الحراك الإصلاحي الذي كان يعمّ القطر الجزائري بفضل الجهود المبذولة من طرف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومتابعة وتقويم الخطوات التي قطعتها. ومثلما يحتمل أن تكون قد تمت بتكليف من جهة مشرفة، فلا يستبعد أن تكون وليدة مبادرة شخصية تجمع بين التفسح ضربا في الأرض وحب الاستطلاع. وقد وردت أخبار هذه الزيارة مقتضبة في تقرير أمني أعده وأرسله رئيس أمن «باتنة»إلى رئيس دائرتها في يوم 25 ديسمبر 1934م. ويشير فيه إلى أن إعداد هذا التقرير ينسجم مع التوجيهات الأخيرة التي تفرض مراقبة شديدة ومتابعة مكثفة لتحركات الأهالي، كما سمّاهم. ويسجل أن عدد سكانهم كان في ذلك الزمن معادلا لـ 8500 نسْمة.

يمنح هذا التقرير ذي الطابع السري عناية ملفتة لنادي «الإصلاح» الذي أسسته شعبة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مدينة«باتنة»، مما يدل على أنه كان واحدا من مقلقات الإدارة الفرنسية في مدينة «باتنة». وقد ورد في هذا التقرير بشأنه ما يلي) :ما انفك نادي «الإصلاح» يتحسن يوما بعد يوم. وقد أصبح مزوّدا بالتسخين المركزي، وبجهاز لالتقاط الإذاعات. ونجد به مكتبة وافرة وغنية بإنتاجات فكرية حرة، وروايات لمختلف المؤلفين أين تسيطر مؤلفات «بيار لوطي»، وبها اليوميات الجهوية الرئيسة المنشورة باللغة الفرنسية التي توزع بانتظام، وتصل، أيضا، «وبعضها من أجل التوزيع« كل الصحف الجهوية وغيرها، التي تتنقد الإدارة الفرنسية والمكتوبة باللغة الفرنسية واللغة العربية ، مثل: «الدفاع»، «ضربة الخيزران»، «Tam Tam»، «الشعب الجزائري»، «الثبات».

قُلصت، منذ مدة قصيرة، اشتراكات أعضاء النادي، وأصبحت تتراوح بين خمس وثلاث فرنكات في الشهر.

يَعمُر النادي أشخاص تتراوح أعمارهم بين أربع سنوات وعشرين سنة من أجل المطالعة أو لعب الدومينو أو البليار أو الورق أو ألعاب أخرى.

يشار ، أيضا، إلى أن الميزابيين، ومنذ فترة قصيرة، باتوا يبحثون عن مصاحبة الأهالي في مدينة «باتنة»، وأن بعضا منهم يأتون بخجل إلى نادي «الإصلاح»، وخاصة منذ أن جاء من الجزائر المدعو بيوض شيخ جماعة العلماء الميزابيين إلى مدينة «باتنة»، والذي شجع هؤلاء الأخيرين على التآخي مع الأهالي.16

الهوامش والإحالات

13 - أخذت هذه المعلومات مكتوبة بواسطة الدكتور محمد حمدي من المجاهد المتقاعد مسعود بن محمد باحماني مالك مصنع الصوف، سابقا، بمدينة «باتنة».

14 - عزوي محمد الطاهر- مقاومة الأوراس في القرن 19 - من1837م إلى 1879م - مجلة «التراث» - إصدار جمعية التاريخ والتراث الأثري لمنطقة الأوراس - العدد: 1 - ذو القعدة 1406هـ، يوليوز 1986م - الصفحة 74.

(***) - يقصد بـ «الفيلاج» قرية: «عين التوتة» الذي جاءه الشيخ صباحا بعد أن قضى ليلته في دوّار «معافة» القريب عند صديقه «حمّة خندودي».

15 - بندقية من جبل بوعريف - مذكرات الملازم الثاني المجاهد محمد الصغير عبد الصمد - تحرير لمباركية نوّار - مؤسسة المختار للطباعة والنشر - باتنة - الصفحة 55.

(****) - بيار لوطي) Pierre LOTI 14: جانفي 1850 - 10 جوان 1923م(، هو كاتب فرنسي، امضى عمره ضابطا في جيش البحرية.

)16(- في حوزتي نسخة من هذا التقرير الذي يقع في صفحتين.